الدمع

لم أهتم أنبعض ولي متقدمهم الدكتور عبد النور بك نقابي بانشاء ملجأ للاولاد البائسين يسمى ملجأ الحرية ويتقدموا له لمباعاة في الاوبرا السلطانية حضره جمهور غفير من رجال العاصمة وتليت فيه الخطب والقصائد في الحث على عقد هذا المشروع ونشأ خطبة للآنسة الشابة ماري زياده موضوعها الدمع. واتفق ان ذكرت هذه الخطبة في بعض الصحف من مسودتها الاصلية لكن الخطيبة تصرفت في بعضها الثناها حسب دواعي الحال فأرغا نشرها بالصورة الاخيرة التي القتها بها وهي هذه)

مصر العزيزة التي تسبق الاقطار العربية نحو قة الارتقاء ، مصركم ايها المصريون ومصرنا نحن المصريين قد بلغت في ارتقائها مرتبة رفيعة. ودلى ذلك شاهدان : الشاهد الاول هو انها في وسط هتاف الوطنية الشامل ارتفع هتاف الانسانية السامي . ارتفع صوت لا ليتكلم عن ماضي الامة ومستقبلها ، ولا ليعظم نوابغها وابطالها ، بل ليذكرنا باحقر ابنائها المرأة الجاهلين . صوت الرحمة والاشفاق انضم الى صوت الحماسة والفخر فرجّعت صداه جميع القلوب وكان الشاهد الاول على وقوف مصر في مرتبة رفيعة . والشاهد الثاني : انا الشاهد الثاني — ليس انا بصفتي الشخصية ولا انا وفاء سوريا المصرية فحسب ، بل انا الفتاة الشرقية يشركها الرجل في جليل اعماله ويفسح لها مجال القول والعمل في الاصلاحات القومية . انا تلك التي خفضت صوتها دهوراً لان الرجل كان كما كان . اما اليوم وقد كبر الرجل وتعالى فقد اوعاني في مكاني جاعلاً صوتي يتصاعد حرًّا ويسطو قاهراً فعالاً ، لا لانه صوت فتاة بل لانه صوت الفرد الانساني المكمل ، وصوت عنصر في المجتمع المصري الراقي

كنت لابسة الثوب الحداد فاستبدلته لاقف امامكم . انما يليق السواد حزناً على الموتى . ولكن الامة التي تنهض فيها حياة جديدة تدعوها الى تقدير كرامة المرأة ، الامة التي ضمّت اليها جميع عناصر الرقاء هي جديرة بانهم شاعرين بانهم اجزاء حية منها ، الامة التي تتذكر النساء في غليان حماستها الوطنية ، وتنحني على التعساء في اجرح مواقفها التاريخية ، تلك الامة لا يجوز لفتياتها لبس السواد بل خليق بهن ان يتشحن بالبياض النقي ، فون الصفاء والسعادة والرجاء ! في هذا الاجتماع الفخم تسمعون من شعرائنا السحر الحلال ومن خطبائنا بليغ الاقوال ، اما انا فاسمحوا ان احدثكم في موضوع يكاد كل ضعف المرأة وكل قوتها ، ما ، الا وهو الدمع

ايها السادة والسيدات

ان الشعراء الذين في كل واد يهيمون لمحات وحي فيها يصدقون . هم الذين شبهوا الدموع باللآلىء فما اتمّ هذا التشبيه مجازاً وحقيقة ! كيف تتكون اللؤلؤة؟ هناك في البحار الحارة يعيش حيوان الصدف اللؤلؤي حتى اذا اصطدم بصخر او بعادة اخرى صلبة تشقق منهُ الجسم واستقرت في تلك الجراح ذريرات الرمل فتكونت عليها اثمن درر العالم . فما اللؤلؤة اذاً الاّ ابنة الالم الطويل وثمرة لوعة مستحصية وداء دافين . وكيف تتكون الدمعة ؟ ما اشبه حكايتها بحكاية اللؤلؤة ! انهُ لا بد لكل احد من الحصول على مجموع معلومات يتكفل بايصالها اليهِ اثنان : الاحوال والبشر . واهم تلك المعلومات وابقاها في النفس لا يأتي الاّ من طريق العذاب والالم ، كما ان اعمق الكلوم قد تأتينا من احب الايدي الينا . وحينما ينجرح القلب تحت ضغط التأثير الشديد اذ ذاك تتكون لآلىء الدموع في جراحهِ ، اذ ذاك تنهمر العبرات واحدة بعد اخرى ، كما نما هي دقات ناقوس صامت حركتهُ يد الحزن فسالت دقاتهُ دروراً ذائبات

ان للدموع اثراً ليس بمحي . قد ينسى المرء ساعات الانس والصفاء ولكنهُ لا ينسى ساعات البكاء لانها تلقنهُ اعظم دروس الحياة وهي اهم مراحل ارتقائهِ . وقد يكون جاهلاً كل لغة وكل معنى غير انهُ يفهم لغة البكاء ومعناها لان جرة الحسرة واحدة في جميع الصدور وما كان البكاء الاّ ارثاً مشتركاً بين بني الانسان . على ان ما نسميهِ دموعاً ليس الاّ جزءاً من السائل الدمعي العظيم الاهمية لحفظ الصحة . ان هذا السائل خفيٌّ تنشرهُ حركة الاجفان على مرآة العين فيصقل منها الاعصاب ويحفظ ما آتي من النشف والجفاف . فاذا هطلت منهُ كمية كبيرة مرضت العين وضعف البصر وصار معرضاً للذبول والانطفاء . ومن جهة اخرى اذا انقطع السائل الدمعي حيناً او افرز كمية قليلة ، فقدت العين تألقها البهي ونزل بها التهاب وتقرح . كذلك تهبط كمية دمعية معيّنة الى مركز حاسة الشم حيث تمتزج بالهواء الداخل الى الرئتين فتفيلهُ من الرطوبة المقدار اللازم

اني استميح عفو السادة الاطباء لتهجمي على موضوع ليس لي . ولكني ارى ان الدموع الكثيرة في عيون البؤساء عنوان الشقاء . اما الدموع القليلة في عيون السعداء فضرورية لجسم الاجتماع ضرورتها لجسم الانسان . ادخل الفائدة من

الامة عينها الرمداء واهل اليسر عينها النجلاء . فان لم يبك السعداء يوماً اظمت منهم البصيرة وتحجر الفؤاد وجهلوا معاني الكآبة وحقيقة الاخاء. وان لم ترطب دموع العطف هواء يستنشقهُ المجتمع فسد الهواء وامتلأ بفحيح الافاعي وبذور الشقاء. وان لم تداوِ الامة منها العين الرمداء انحل التضامن واختل التوازن وامتدت القروح قليلاً قليلاً الى العين النجلاء

قال الدكتور ويلسن في خطبة القاها في ايطاليا : « ان قلب العالم يخفق اليوم ليس في الخنادق وميادين القتال فحسب ، بل هو خافق في معمل العامل وكوخ الفلاح وحقل الزارع » . صدق الرئيس المحترم ولكنهُ تكلم كفيلسوف فقط. ان قلب العالم خافق اوجع خفقاتهِ في صدر العامل الذي لا عمل له والزارع الذي لا حقل لهُ ، وفي صدر اليتيم الذي لهُ جسم يعذبهُ وليس لهُ من يهتم بهِ ويحنو عليهِ. ان قلب العالم خافق اوجع خفقاتهِ واشدها هولاً وخطراً في صدور غلمان الأزقة ونزلاء الاوصنة من شيوخ ونساء وفتيات واطفال يتسولون ويتأوهون ونحن نعرض عنهم لانهم ليس فيهم ما يتطلبهُ ذوقنا المتعجرف من اناقة وكياسة ! انا ما رأيت عمارة تزخرفها يد الباني الأ خنقتني الغصات اشفاقاً على من لا مسكن لهم . ولا وقع نظري على الاثواب النفيسة والجواهر المتألقة الأ التاع قلبي على ايتام ليس عندهم ما يلبسون . ولا دخلتُ مقاصف سهراتنا وافراحنا او شهدت انواع الوافدين علي سولت وجروبي ـ ومحال الملاهي والسمر الكثيرة الأ ضاقت مني النفس كمداً على فتيات مصريات طالما رأيتهن باحثات بين ما تلقيهِ المنازل الكبرى عن فتيت يصلح للغذاء ! عن فتيت يصلح للغذاء ! ايقال هذا في مصر ويجري مثل هذا في مصر أمّ الجود والخيرات ؟ اواه ! انك لتهتزين الآن يا شهامة الرجال ! انك لتحزنين ايتها الاريحية المصرية وتقومين محتجة على قولي. ان هذا القول الاليم أثبتهُ حزينة انا ايضاً ، وباسم السخاء المصري احتج صارخة ان هذه الفواجع لا تجوز ولا ينبغي ان تكون في مصر ! — حتى انت يا عيون الظلام ، ايتها الكواكب المحدثة بعظمة الوجود وخلود الضياء ، يا طالما رصدتك ، وقد خنتك في قلب الشتي حروقاً وفي عيني البائس دموعاً !

هاك الشوارع الوطنية والاحياء الاوربية جبها طولاً وعرضاً ، في كل مكان تلقى الاعضاء المشوهة والعيون المطاسة وذل اليد المستعطية ! وفي كل مكان ترتفع

العين المصرية دامعة : سلوا الاطباء من ينشر جراثيم الامراض ، وسلوا المصلحين من يقلق الامن والنظام ، وسلوا المفكرين عن ذلك الشيء الذي يسمونهُ « سرطان الاجتماع » ، وسلوا رجال القضاء عن أكثرية المجرمين . بل سلوا تلك اليد المجهولة التي تنشر الراية السوداء على السجون وسلوا الجلاد أيُّ الاعناق تمر بين يديهِ لتحضنها حبال المشانق ، ... المشانق ! كلمة رهيبة ! ميتة ذليلة يشتريها فيتاني بما هو جانٍ ، يجرُّهُ التنوط والجهل والحاجة والعادة الى ارتكاب الجريمة الجلادُ عدل المجتمع بالعقاب الشديد . ولكن هذا المجتمع الذي يقتل الجاني بأنانيتهِ واهمالهِ قبل ان يقتلهُ بعدلهِ ، هذا المجتمع الذي يعدم نفس الجاني مرات كثيرات قبل ان يعدم جسدهُ مرة واحدة ، ترى لماذا لا يسألهُ ولا يطالبهُ احد؟ ألأنهُ قوي قادر غني ؟ ألا لله در الشاعر القائل :

والعدل في الارض يبكي الجن لو سمعوا ... بهِ ويستضحك الاموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين ان صغروا ... والمجد والفخر والاثراء ان كبروا
فسارق الزهر مرذولٌ ومحتقرٌ ... وسارق الحقل هو الباسل الخطر
وقاتل الجسم مقتول بفعلتهِ ... وقاتل الروح لا تدري بهِ البشر (١)

الا ياايها المطربونا بنشيد الحرية العظيم ، هلاَّ ذكرتم ان للحرية جناحين ، في قدم الامة اغلال السقام وقيود الهوان فكيف بلا تكسير هذه الاثقال تطيرون ؟ ألا قفوا امام المجرم خاشعين ! انهُ كان في حاجة الى العطف والمؤاساة لكنَّ المجتمع احتقرهُ ونبذهُ فاندفع يتدهور في هاوية الشرور . من منا يدري كم الهبت الحسرة فؤادهُ وكم دمت العبرات مقلتيهِ ؟ ألا احنوا الجباه امام قوىً حُصرت فيهِ ولم تهتم بهِ يد الرعاية لتبرز الى الوجود خيراً . احنوا الجباه امام فتيات الشارع البائسات : ان فيهنَّ شعوراً لطيفاً تنهشهُ كل لحظة انياب الفاقة ، وفي عيونهنَّ أشعة الذكاء والحنان يحجبها ليل المسكنة وظلام الدموع ، وبين شفاههنَّ كلمات المحبة منسيات لانهن لا يستعملن الاَّ كلمات الاسترحام والاستعطاء : انهن بحر البشرية الوجيع العميق ! احنوا الجباه لذكر من تدعوهم الرعاع والغوغاء : ان عندهم قلوب رجال ونفوساً ابية لو كنتم لها مهذبين ، ان اليد منهم لم تخلق للتدمير والنهب والبطالة ، وانتم المطالبون بجعلها يداً امينة نشيطة عاملة لخير البلاد ،

(١) من كتاب « المواكب » لجبران خليل جبران

يداً تحمل بكفاءة وكرامة القلم العربي والسيف الشرقي والعلم المصري المفدى !

إني اقبل هذا التصفيق الحماسي أيها السادة ، أقبلهُ بفخر ، وأقدمهُ الى الدكتور لطفي بك والقائمين بهذا المشروع الخطير. أقدمهُ الى الايدي الرحيمة التي ستنقلب تحت لمسها دموع التعساء بسمات ، والى المحسنين الذين ستقف عطاياهم في وجه الفاقة سداً منيعاً ! لقد تسابقت مصر وسورية قبل اليوم في مواقف ادبية كثيرة ولكنهما لم تقفا جنباً الى جنب في اشرف من هذا الموقف ، موقف الدعوة إلى البر والاخاء . وتصفيقكم هذا اثمن ما عندي في هذه الدقيقة فأقدمهُ تذكار ولاء واعجاب واجلال من سورية المصرية الى مصر البذولة الكبيرة الاريحية !

ايها السادة والسيدات

انما النيل مدين بفضله لسحر الدموع . ضاع الاله اوزيريس يوماً فالتاعت الالهة ايزيس لفراقهِ وجلست على شفة النهر تبكيهِ . اذ ذاك اضطربت امواقك ، ايها النيل العظيم ، فاندفعت متدفقاً جاعلاً من ربوعك التربة تبراً ، تاركاً سهولك التاريخية في ربيع دائم ! كل عام يهيجك ذكر دموع الهة الاسرار والاشجان فيلتطم منك الفيضان وفياً ، وستظل على العهد اميناً ما بقي ابو الهول محدقاً في الفضاء وبقيت المجرة منبسطة في عقيق السماء !

من منا لم يبك ولو مرة كربة الوادي ؟ أي بشر لم يضف الى بحر العبرات الانسانية دمعة واحدة تعلمهُ شرف الاحسان ورفة الاخاء ؟ الا انَّ كلنا عليل سقيم وفي قلبهِ حروق العبرات والاحزان . فانهضي الساعة يا ذكرى الدموع امامنا جميعاً ! انجلي يا دموع الافراح ودموع الاتراح ، دموع الذل ودموع العز ، دموع الفراق ودموع التلاق ، دموع اليأس ودموع الرجاء ! انت التي تثيرها فينا نوائب الايام وايلام الغرباء ، وانت التي تضمها في عيوننا اسماء الاحباب . دموع الماضي الذي لا ينقضي ودموع الحاضر القوي بتأثيره . كلكنَّ ، كلكنَّ أيتها الدموع التي لا اسم لك في لغات البشر لانك نثرات الارواح الغاليات واجزاء من العمر متطايرات ! انجلي لتنبهي كل ما جُمع في الروح المصري من مجد الفراعنة وعظمة الاسلام ! انجلي امامنا متوهجات لاذعات كالنار ليحولنَّ الالم رأفة وكرماً ! اذ ذاك تذكر اليد المصرية أن النيل قد طبع عليها رسم سخائهِ ، فتتناولك الهمم الشماء وتبلور كلاً منك حجراً متيناً يقوم بهِ ملجأ الحرية !

(مي)